

المقاربة النسقية وديناميكية التغيير

Systemic Approach and the Dynamic of Change

جامعة وهران 2 محمد بن أحمد – (الجزائر)	علم النفس العيادي	wahiba bennaceur * bennaceur.wahiba@univ-oran2.dz
جامعة وهران 2 محمد بن أحمد – (الجزائر)	علم النفس	بولجراف بختاوي bouladjeraf.bekhtaoui@univ-oran2.dz

تاريخ النشر: 2024/12/31

تاريخ القبول: 2024/12/26

تاريخ الإرسال: 2024/11/25

ملخص:

أحدثت المقاربة النسقية نقلة نوعية وتحولًا جذريًا في كيفية فهم وإدراك الواقع، على عكس الأساليب السابقة، وذلك من خلال اعتبار الظاهرة نسقًا مفتوحًا في تفاعل مستمر، يمر بمراحل من الاستقرار والتغيير والنمو تحددها مجموعة من العوامل، وتتمثل أهم هذه العوامل في ديناميكية التفاعل ونوعية التواصل والعلاقات والسياق. تسعى هذه الدراسة النظرية إلى تسليط الضوء على المقاربة النسقية، متتبعة مسارها منذ نشأتها وصولاً إلى خصائصها المميزة التي مكنتها من الانتشار في مختلف المجالات والعلوم. كما تستعرض الدراسة الأسس الإبستمولوجية والنظريات التي قامت عليها هذه المقاربة. الكلمات المفتاحية: المقاربة النسقية؛ التفاعل؛ التواصل؛ السياق؛ التوازن والتغيير.

Abstract:

The systemic approach has brought about a qualitative shift and a radical transformation in how reality is understood and perceived, in contrast to previous methods. This is achieved by considering the phenomenon as an open system in continuous interaction, undergoing phases of stability, change, and growth determined by a set of factors. The most important of these factors include the dynamics of interaction, the quality of communication, relationships, and context. This theoretical study aims to highlight the systemic approach, tracing its development from its inception to its distinctive characteristics that have enabled it to spread across various fields and sciences. The study also reviews the epistemological foundations and theories upon which this approach is based.

Keywords: systemic approach; interaction; communication; context; Homeostasis and change.

1. مقدمة:

تتميز التغيرات والأحداث التي عاشها ويعيشها العالم على جميع المستويات، السياسية والإيديولوجية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها، بتداخل معطيات كل مستوى بمعطيات المستويات الأخرى، أدى هذا التداخل إلى صعوبة فهم وتفسير الظواهر الناتجة عن هذه التغيرات. تعرضت الطريقة العقلانية والتي كانت مهيمنة لثلاثة قرون، لانتقادات حادة بسبب اعتمادها في تفسير الظواهر على تحليل المعطيات بشكل منفصل، ومن أشهر رواد هذه الطريقة روني ديكارت René Descartes الذي يُعد مؤسس العقلانية في الفلسفة الحديثة باعتبار المنطق (العقل) هو مصدر المعرفة أو التبرير، مؤكداً على أن معيار الحقيقة فكري واستنباطي وليس حسي، واستمر هذا التفسير إلى غاية ظهور الفكر النسقي في الخمسينات من القرن الماضي.

قبل ظهور الفكر النسقي، عجز العلماء على تقديم تفسيرات شاملة وشفافية للعديد من الظواهر المعقدة التي كانت تواجه المجتمعات، مثل الأزمات الاقتصادية، المجاعة والبطالة، الأمراض، صعوبة اندماج المجتمع المدني، الفوضى، والبلبلية الإيديولوجية والدينية. يرجع فشل التفسيرات لعدة أسباب، منها تقليص المعطيات مما أفقد الظاهرة معناها الحقيقي، عدم طرح الأسئلة بشكل سليم مع عدم مراعاة التغيرات التي تطرأ على السياقات الخاصة بكل ظاهرة. ألهم هذا الطريق المسدود لتفسير الظواهر المعقدة فرصة للعلماء للبحث والكشف عن تعقيدات المشاكل المطروحة وتطوير نظريات وحلول

أحدث الفكر النسقي كتصور شامل للظاهرة ثورة إبستمولوجية لما فرضه من تحول راديكالي في شكل وطبيعة إدراك الواقع واكتسح ميادين متعددة وعلوم مختلفة منها البيولوجيا، علم الأحياء وعلم الأعصاب، الاقتصاد وإدارة التسويق، علم الاجتماع، علم النفس، السياسة البيئية، وتسيير المؤسسات وتنظيم العمران وتهيئة المحيط علم الآثار وتخطيط المدن، الأتمتة وتكنولوجيا المعلومات وتنظيم العمل في الشركات والإدارات وإلى غيرها من العلوم والميادين.

أهداف الدراسة: تهدف هذه الدراسة حول المقاربة النسقية وسيرورة ديناميكية التغيير إلى ما يلي:

- تقديم فهم شامل للمقاربة النسقية ودورها في تحليل وفهم الظواهر المعقدة في مجالات العلوم الطبيعية والاجتماعية وغيرها، بالإضافة إلى استعراض التطور التاريخي لهذه المقاربة وإسهاماتها المتنوعة وتطبيقاتها العملية.
- تسليط الضوء على أهمية التفاعل ما بين العلوم المسماة "بالصلبة" كالفيزياء، والبيوكيمياء، والرياضيات والبيولوجيا...الخ والعلوم المسماة "بالمرنة" كعلم النفس، وعلم الاجتماع، والتاريخ، والأنثروبولوجيا وغيرها من العلوم في ظهور المقاربة النسقية.
- الأخذ بعين الاعتبار النظريات الأساسية التي أسهمت في تطوير منهج التحليل النسقي
- استعراض أهمية التفاعل من خلال التواصل والعلاقات بين النسق ومحيطه الخارجي، وكيفية تأثير هذا التفاعل على سلوك النسق.
- التأكيد على أن المقاربة النسقية كإجراء وطريقه عمل تتطلب مجهودا في معرفة المفاهيم المرتبطة بها وتعلمها واستيعابها، مع إبراز أهمية الخلفية النظرية للمقاربة النسقية في فهم وتحليل الظواهر كخطوة أولى قبل مباشرة العمل.
- المساهمة في توضيح بعض المصطلحات الأساسية للمقاربة النسقية، فإن حداثة المقاربة النسقية وتضمنها لمصطلحات متعددة مستقاة من مجالات ومن لغات أجنبية مختلفة يجعل ترجمتها وتوحيدها أمرا صعبا.
- أن التحليل النسقي للظواهر المعقدة يتطلب مجهوداً كبيراً في فهم المفاهيم الأساسية، وتعلم الأدوات والتقنيات المستخدمة مما يجعل الرجوع إلى الخلفية النظرية أمرا ضروريا.
- التأكيد على أن المعرفة النظرية ضرورية لمعرفة الأداء والعكس صحيح، فالمعرفة النظرية توفر الأساس لفهم الظواهر المعقدة، بينما الأداء العملي يساعد على تطبيق هذه المعرفة في حل المشكلات الواقعية.
- جلب الانتباه إلى عملية التأثير المتبادل ما بين المعرفة النظرية والمعرفة الخاصة بالأداء واستمراريتها لتحقيق التوازن والتغيير والإبداع.
- التركيز على آليات التغيير والتطور والتي تتمثل في ال تفاعل (التفاعل ما بين عناصر النسق، والتفاعل ما بين النسق والمحيط الخارجي)، التواصل والتغذية الرجعية والتكيف أو المرونة.

2, إبستيمولوجيا الفكر النسقي

أدى ظهور الفكر النسقي كتوجه يهتم بالشمولية والتعقيد والشك إلى حدوث ثورة معرفية وإبستيمولوجية Révolution Epistémologique ، فرض هذا الفكر تحولاً جذرياً في شكل وطبيعة إدراك الواقع، الذي يتغير بتغير السياق، ويؤدي بدوره هذا التغير إلى تحول معنى الظاهرة. عرف غريغوري بيتسون G.Bateson الإبستيمولوجيا على أنها « عبارة عن نتائج وإنتاج المعرفة وفق معتقدات الإنسان التي تخص ماهية العالم التي تحدّد الشكل الذي يدرك به هذا العالم وتحوّله، "أمّا الإبستيمولوجيا النسقية فهي مجموعة من المعتقدات، من المعارف ومن التجارب الموجهة لمستوى ما من الواقع وهي تلك العلاقات ما بين الأشياء، والعلاقات ما بين الملاحظ والملاحظ».(O.Amiguët & C.Julier:1996:20)

طوّر غريغوري بيتسون مقاربة نسقية للإبستيمولوجيا، مؤكداً على أهمية التفاعلات والتغذية الراجعة في بناء المعرفة، موضحاً على أن المعرفة عملية مستمرة من التكيف والتعلم، تتأثر بالتفاعل مع العالم الخارجي مستدلاً بقوله أن المعرفة هي عملية ردود أفعال دائرية، تتطور مع مرور الوقت، ويضيف في نفس السياق على أن "نظرية المعرفة هي دراسة العلاقات بين أنظمة المعرفة والأنظمة البيئية. (Bateson.G, 1979: 15).

كان للمنهج ج. بيتسون النسقي في نظرية المعرفة (الإبستيمولوجيا) تأثير كبير على الفكر المعاصر، فقد ساعد في إعادة تعريف الطريقة التي يفكر بها الإنسان وكيفية تفاعله مع المحيط الخارجي. كان تغيير طريقة التفكير والتصور للظواهر أمراً حتمياً، كما أشار إليه ألبرت آينشتاين Albert Einstein مؤكداً على أنه إذا لم نغير في طريقتنا للتفكير، لن نكون قادرين على حل المشاكل التي نخلقها من خلال النماذج الحالية لتفكيرنا. G.Donadieu & (M.karsky, 2002).

حاول الفكر النسقي الربط بين اتجاهين من الفكر، يتمثل الفكر الأول في الفكر التحليلي la pensée analytique والذي سيطر لقرون عديدة على العالم الغربي، وهو تجسيد للفلسفة الديكارتية العقلانية التي قدمت الكثير حول مكونات وخصائص الأشياء، متناسية العلاقات التي تربطها. بينما يتمثل الاتجاه الثاني في الفكر الشامل la pensée holistique والذي عُرف بشكل كبير في العادات والتقاليد الشرقية كالبودية.

يتصور الاتجاه الشامل الظواهر التي يحدث في العالم كوحدة شاملة، تكتسب معرفتها بواسطة الحدس. على الرغم من تميز هذا الاتجاه بغنى المعنى، إلا أنه يفتقد إلى التحديد

والإشارة إلى بعض الفروق بين الظواهر كما هو الحال في الاتجاه التحليلي، وعليه يمكن القول أن المقاربة النسقية هي واقع علم يربط بين الاتجاه الشامل والتحليلي في نفس الوقت.

3، ميلاد ونشأة المقاربة النسقية

نشأت المقاربة النسقية في بداية الخمسينات بالولايات المتحدة، عُرفت وطُبقت بفرنسا منذ السبعينات، وهي نتيجة لالتقاء علوم متعددة ولعملية تلقيح متبادل une fécondation mutuelle للإلكترونيك والبيولوجيا، فمن الآلة إلى الكائن الحي المتميز بنشاطه المعقد إذ حاولت المقاربة النسقية توضيح ميكانزمات ونماذج هذا النشاط. ومنذ ذلك الوقت انصب اهتمام المقاربة النسقية على علوم كثيرة كالعلوم المسماة "الصلبة" كالفيزياء، والبيوكيمياء، والرياضيات والبيولوجيا... الخ والعلوم المسماة "المرنة" كعلم النفس، وعلم الاجتماع، والتاريخ، والأنثروبولوجيا وغيرها من العلوم.

تعتبر مدرسة پالو-ألتو Palo-Alto مهدا لميلاد المقاربة النسقية وهي كذلك مدرسة ذات اتجاه فكري وبحثي جديد، ظهرت في أوائل الخمسينات من القرن الماضي، وأخذت المدرسة اسم پالو-ألتو نسبة لمدينة پالو ألتو المتواجدة في كاليفورنيا (حيث تقع جامعة ستانفورد). وجدت المقاربة النسقية مصدرها في التوجه النظري والأسس الإستيمولوجية لأبحاث غريغوري بتيسون Gregory Bateson سنة 1927 وهو عالم مختص في الأنثروبولوجيا والإستيمولوجيا والإثنولوجيا (علم الأخلاق) وعلم النفس والذي اكتسب شهرة نتيجة معارضته نظرية تطور الكائنات لشارل داروين. أكدت أبحاث غ. بتيسون أن سلوكيات الفرد محددة بردود أفعال المحيط، وعلى علم النفس أن يتعدى المحددات النفسية الداخلية ويأخذ بعين الاعتبار القنوات العلائقية للفرد الذي يتلقى باستمرار المعلومات من محيطه ويقوم بمعالجتها.

إن اكتشافات غريغوري. بتيسون، الممتدة من سنة 1949 إلى غاية 1962، تأثرت مجملها بمختصين في الرياضيات أمثال، جون نيومان John Neumann ونوبير واينر Norbert Wiener (ممهدي علم السيبرانية Cybernétique) وبالبيولوجي فون برتلنفلای لودفينغ Von Bertalanfly Ludwig صاحب النظرية العامة للأنساق (النظم) وبالعالم الرياضيات والفيلسوف برنارد. روسل Bernard Russel مؤلف نظرية الأنماط الموضوعية

وميلتون.هايلاند. إريكسون Milton H Erikson، طبيب الأمراض العقلية وصاحب النهج الإريكسوني للعلاج بالتنويم المغناطيسي.

اقترح غريغوري بتيسون G.Bateson كذلك من طبيب الأمراض العقلية دون د. جاكسون Don.D.Jackson وطورا معا فكرة نماذج التواصل التي تحدد بشكل كبير السلوكات الإنسانية. كان التفاف الطبيب دون د. جاكسون بغريغوري بتيسون ومجموعة من الباحثين من أمثال فرجينيا ساتير Virginia Satir (نفسانية أمريكية) وبول فلترلافيك Paul waltzlawick (فيلسوف نمساوي ومحلل نفسي) سببا في تأسيس معهد البحث للصحة MRI (Mental Research Institute) بمدينة پالو-ألتو بكاليفورنيا في الولايات المتحدة الأمريكية. انصب اهتمام هذا المعهد حول العلاجات الأسرية وتأسيس مبادئ العلاجات قصيرة المدى les Thérapies Brèves مع الإشارة أن ما تم اقتراحه على العائلات ينطبق على جميع البنيات المؤسساتية.

انطلقت المقاربة النسقية من وجهة نظر إبستمولوجية مختلفة عن ما كان سائدا قبلها، فحاولت التقرب من ظواهر مختلفة ومتعددة من خلال رؤية شاملة. اعتمد التحليل النسقي على تصور الظاهرة كنسق له بنية ونظام وسياق، ويعتمد هذا المنهج التحليلي الجديد على الملاحظة، وعلى أساس نظري يتمثل في نسق من الأفكار، يرتب وينظم معطيات الظاهرة التي يتحصل عليها، ويتحقق من صحتها لبناء المعرفة، ويمكن لهذه الأخيرة (المعرفة المبنية) إعادة النظر في نتائجها أو تغييرها. وعليه استنتجت المقاربة النسقية على أن موضوع الفهم والمعرفة (الإبستمولوجيا) ووسائل البحث والإطار النظري عبارة عن نسق من الأفكار يعمل وفق نموذج معقد يتأرجح ما بين التنظيم والفوضى ما بين الاتزان والاختلال. (O.Amiguët & C.Julier, 1996)

4, ماهية المقاربة النسقية

ظهرت تعاريف متعددة للمقاربة النسقية، تتفق جميعها على أنها وسيلة سمحت للعلوم بفهم الظواهر المعقدة، وتقديم الحلول. وتصنف هذه المقاربة بأنها نظرية أو فعل أو إجراء، وفي هذا الصدد يعرفها الباحثان ك.جولي وأ. أوميغي على أنها "نموذج من الفكر تتميز المقاربة النسقية بعدة خصائص كالانفتاح، عدم الاستقرار، الفوضى، الغموض، التعارض، التناقض والإبداع... الغ، وفي هذا الصدد يرى ج. دناديو وم. كارسكي على أن المقاربة النسقية تركز على ثمرات وتصورات جديدة للواقع تأخذ بعين الاعتبار خصائص

مثل عدم الاستقرار، الانفتاح، التذبذب La Fluctuation، الفوضى Le Désordre et le Chaos، الغموض، التعارض، التناقض والإبداع. (G.Donadieu & M.Karsky, 2002).

يمكن تعريف المقاربة النسقية كمقارنة تقترح تصورا جديدا حول الواقع وطريقة لفهم المشاكل وتعقيداتها. وانطلاقا من هذا التصور، يتعدى التحليل واقع الفرد النفسي الداخلي ليشمل معطيات السياق والبيئة التي يعيش فيها، إذ يعتبر كل ك.جولي وأ. أوميغي أن "السياق هو المَعْلَمُ الوحيد الكفيل بإضفاء المعنى على الظاهرة". لقد فرض الفكر النسقي تحولاً جذرياً في كيفية فهم وإدراك الواقع، باعتبار الظاهرة نسق مفتوح على مجموعة من الأنساق الخارجية تتفاعل فيما بينها بشكل مستمر ومتبادل، و يرتبط هذا التفاعل ارتباطا وثيقا بالعوامل السياقية مما يجعل التنبؤ بمآلات هذا التفاعل أمرا صعبا. (O.Amiguët & C.Julier, 1996)

يتجاوز ر. نوبارجي R.Neuberger في تعريفه للقراءة النسقية ذلك الوصف البسيط للواقع، ليعبر عن تلك الملاحظة الدقيقة لعمليات معقدة كتقاسم المهام الضرورية للنسق ومختلف التفاعلات والتحويلات. يؤكد روبيرنوبارجي على ضرورة التخلي عن الأسلوب الوصفي الذي يهدف إلى طرح فرضيات، فمن وجهة نظر النسقية، المواضيع (أشخاصا أو أشياء) تظهر معزولة إلا بطريقة اصطناعية، إنها تفرقة خاطئة، "لا يوجد أفراد داخل النسق، ليسوا فقط عناصر، لكن مهام محتلة من طرف العناصر". (R.Neuberger, 2002: 66).

ويضيف ر. نوبارجي R.Neuberger في نفس المرجع أعلاه على أن ممارسة عناصر النسق لمهام مختلفة من أجل الحفاظ على الهوية ليست مشروطة باكتساب مهارات خاصة ويعتبر التفاعل داخل النسق ابتكارا واختراعا يجعل ممارسة المهام مرنة وأكثر تكيفا مع نشاط النسق وفترات أزmates.

نظريات المقاربة النسقية:

ترتكز المقاربة النسقيه على مجموعة من النظريات الأساسية التي أسهمت في تطوير منهج التحليل النسقي، ومن بين هذه النظريات، النظرية العامة للنسق، النظرية السيبرانية، ونظرية التواصل ستند مدرسة پالو-التو Palo-Alto إلى نظريات أخرى ذات أهمية كبيرة مثل النظرية البنائية ونظرية التوازن والتغيير.

نظرًا لأهمية النظريات التي تشكل أساس المقاربة النسقية، والتي تم ذكرها سابقًا، يصبح من الضروري تقديم بعض التعريفات لتوضيح الرؤية وإزالة أي غموض ناتج عن التداخل والترابط بينها.

5, النظرية العامة للأنساق: la Théorie Générale des Systèmes

تعتبر نظرية العامة للأنساق من أهم نظريات المقاربة النسقية ومناسبة لكل العلوم وأثارت اهتماما كبيرا من طرف العلوم الاجتماعية ويعود الفضل إلى العالم لودففينج فون برتلانفلي Ludving.Von Bertalanfly (1901-1972) وهو أستاذ وباحث متعدد التخصصات منها البيولوجيا (ما يسمى "بالعلوم اللينة") والفلسفة وعلم النفس (ما يسمى "العلوم بالصلبة")، كان لاختلاف تخصصاته أثر في تطوير مبادئ توحيد قوانين العلوم مع احتفاظ كل علم بخصوصياته، فكان اكتشافه لنظرية النسق سبيلا لدراسة الظاهرة بأجزائها المترابطة والغير المنفصلة. فوضعت قوانين متشابهة، يمكن تطبيقها على كل الأنساق بغض النظر عن خصوصياتها وبخصوصيات العناصر التي تنتمي إليها.

ترى النظرية العامة للأنساق العالم رؤية شاملة وترابطية مبنية على كم معقد من العلاقات الناتجة من التفاعل ما بين عناصر النسق، وما بين النسق والبيئة المحيطة به والسياق بشكل عام. تفترض نظرية الأنساق العامة على أن الكل أكبر من مجموع الأجزاء المكونة له، وعلى أن أي تغيير يطرأ على أي من الأجزاء المكونة للنسق فإنه يؤدي بالضرورة إلى حدوث تغيير في النسق بصفة عامة. تفترض نظرية الأنساق العامة بأن لكل نسق إطار مرجعي، ويقصد بهذا الأخير مجموعة العادات والتقاليد والقيم والمعايير والطقوس ناهيك عن الأسطورة التي يشكلها النسق للحفاظ على كيانه، ويكون تشكيل هذا الإطار المرجعي - غالبا- بصورة ضمنية تتوارث عبر الأجيال وقد تحدث عليها بعض التعديلات وهذا طبعا حسب تاريخ وسياق النسق وامتداده.

يعتبر النسق بمثابة الحجر الأساسي لنظرية الأنساق العامة إذ استمدت هذه الأخيرة تسميتها منه (النسق)، ولهذا المفهوم عدة تعاريف سنحاول التطرق إلى البعض منها ولكنه قبل ذلك يجب تسليط الضوء على بعض المفاهيم المرادفة لمصطلح النسق.

غالبًا ما تستخدم كلمة النسق والنظام بالتبادل في اللغة اليومية، إلا أن هاتين الكلمتين تحملان دلالات مختلفة في الإطار العلمي والأكاديمي، ولكن هذا لا ينفي إلى أن مصطلح النظام يستخدم أحيانا في بعض المراجع العلمية للإشارة إلى النسق. يشير النسق سواء

كان بيئيًا، اجتماعيًا، أو تكنولوجياً أو غير ذلك إلى مجموعة من العناصر المترابطة والمتفاعلة بشكل متبادل ومستمر لتحقيق هدف معين، أما النظام يعبر عن الهيكلية والتنسيق داخل النسق فهو يشير إلى القوانين والعمليات التي تحكم عمل النسق وفق تنظيم خاص، كما تجدر الإشارة إلى أن مصطلح التنظيم يشير إلى كيفية ترتيب العناصر داخل النظام لتحقيق الكفاءة والفعالية ويتعلق الأمر بتوزيع الأدوار والموارد، وتحديد المسؤوليات.

تعريف النسق:

تعريف النسق لودفينج فون برتلانفلي: قدم هذا العالم عدة تعريفات للأنساق إذ يبدو كتابه الشهير "النظرية العامة للأنساق" للكثير من الباحثين الأكثر اكتمالا لتحديد مفهوم النسق، وعرفه في بداية الأمر على أنه "مجموعة من العناصر المتفاعلة والذي كان يبدو تعريفا عاما وغامضا كما جاء في مجلة (NS278: 2009, scientifique et technique)، ثم أضاف النسق هو "كمجموعة معقدة من العناصر المتفاعلة" مؤكدا على أن "النسق عبارة عن مجموعة من العناصر المتفاعلة التي تشكل كلاً".

يمكن أن تكون عناصر النظام أشياء أو أشخاصاً أو أحداثاً أو أفكاراً. ويمكن أن يكون التفاعل بين عناصر النظام مادياً أو بيولوجياً أو نفسياً أو اجتماعياً، يمكن أن تكون الأنساق مفتوحة أو مغلقة، فالأنساق المفتوحة تتفاعل مع بيئتها أما الأنساق المغلقة معزولة عن بيئتها. (L.Von, Bertalanffy 1968)

ومع مرور الوقت طوّر فون برتلانفلي والذين خلفوه من بعده مفهوم النسق وتم تعريفه كالاتي : « النسق هو مجموعة معينة، مكونة من عناصر منظمة، مترابطة interdépendants، تتفاعل مع بعضها البعض، والتي تبحث في محيط ما، الوصول إلى هدف أو أهداف معينة، واضحة أولاً، في تطور وإنتاج أنشاط أو أنشطة.» (O 1996 : 38). (C.Julier & Amiguet).

تعريف روسل ل. أكوف Russell L. Ackoff للنسق: النسق ليس مجرد مجموعة من العناصر، بل هو مجموعة من العناصر المتفاعلة، التي تشكل كلاً متماسكاً ومتطوراً. إن تأثير العناصر على النظام يكمن في قدرتها على التأثير على الديناميكيات العامة للنظام، وتوليد التغييرات والتغذية الراجعة التي تعدل هيكل وسلوك الكل، مما يساهم في ثراء العلاقات المتبادلة والتغذية الراجعة التي تميز الأداء النسقي. (Russel.L. Ackoff, 1973)

تعريف موريس راشلن M.Reuchlin للنسق: م. راشلن وهو نفساني فرنسي وأستاذ في علم النفس يشير إلى أن "النسق يعني الحديث والتأكيد عن العلاقات ما بين مركبات النسق والتأكيد على أن التواصل والارتباط لهذه المركبات يقود في نفس الوقت إلى تحليل هذه العلاقات بمفهوم المهام فكل نسق مطالب بضمان مستوى معين من المهام». (M.Reuchlin, 1972: 71)

يؤكد قون برتلنفلاي أن نظريته العامة للأنساق أخذت هذه التسمية لضمها كل أنواع الأنساق من الأشياء، والكائنات الحية وغيرها، ويطلق على قدرة هذه النظرية في تطبيقها على كل أنماط الأنساق التي تربطها علاقات بالتطابق بالمماثلة Isomorphisme. **طبيعة الأنساق وأهمية الطاقة:**

يرتبط مصطلح النسق بمجموعة من المصطلحات كالتغذية الرجعية والطاقة والمرونة وغيرها ومن المفاهيم الهامة. لقد سبق الذكر أنه يوجد أنماط من الأنساق، لكن النمطين الأساسيين هما نمط الأنساق المغلقة ونمط الأنساق المفتوحة، وتختلف فيها درجات الانغلاق ودرجات الانفتاح وفق حلقات التغذية الرجعية وهي على شكلين: الشكل الإيجابي *Rétroaction Positive* والشكل السلبي *La Rétroaction Négative* 1-2-1: التغذية الرجعية الموجبة: هي عملية تكثيف التأثير مما يؤدي عادة بمثير بسيط إلى زيادة الاضطراب والزخم مما يدفع بنظام النسق للخروج من حالة التوازن الأولية إلى حالة توازن جديدة. وتمتاز الأنساق التي تهيمن عليها التغذية الرجعية الموجبة بالنمطية إذ تسمح هذه الأخيرة بإمكانية توقع طبيعة التواصل ونتائجه داخل النسق من خلال معرفة السلوك السابق الصادر عن احد عناصره.

يرى س.جولي & أ. أوميقي على أن النسق المغلق يستعمل مخزونه الخام من الطاقة الداخلية ويتوقف عن النشاط بعد بلوغه حالة التوازن، فعملية التأثير والتأثر (التفاعل) ضعيفة ما بين النسق المغلق والمحيط الخارجي. أما الأنساق المفتوحة فهي أنساق في تفاعل مستمر مع البيئة الخارجية تتم خلاله عمليتي الاستيراد والتصدير مع تفادي الإفراط أو التفريط مما قد يؤدي بها إلى فقدان الطاقة *entropie* ونهاية النسق. إن التركيز على تخزين قدر من الطاقة *néguentropie* أمر ضروري، وتتجلى طاقة للأنساق الإنسانية في المعلومات التواصلية التي تنمي العلاقات والتعاملات وتحافظ على الإطار المرجعي للنسق وعلى هويته وعموما ما يصبو إليه من أهداف. (C.Julier & O. Amiguet, 2013).

2-2-1: التغذية الرجعية السلبية: تعمل هذه التغذية على إضعاف الظاهرة Phénomène وتخفيفها مما يساعد على استقرار النسق وتوفير الحماية الذاتية له مما يعطي لهذا الشكل من التغذية صفة آلية الضبط Mécanisme de régulation فبقدر ما يحافظ هذا الشكل على الاتزان فإنه يستطيع كذلك توليد صرامة وصلابة وغلق النسق في نظام عمل دائري بدون هدف.

التفاعل والعلاقات

تعتبر التفاعلات والعلاقات بين عناصر النظام هي لبنة البناء الأساسية في المقاربة النسقية. فهي تحدد سلوك النظام ككل، وتؤثر على قدرته على التكيف والتغيير. إن فهم التفاعلات والعلاقات بين عناصر النسق هو مفتاح لفهم سلوك النظام وتطوره. وتعتبر المقاربة النسقية أداة قوية لتحليل هذه التفاعلات والعلاقات، مما يجعلها أداة أساسية في العديد من المجالات العلمية والتطبيقية. اقترح س. مينوشين Salvador Minuchin شبكة لقراءة النسق تستند على التفاعل والعلاقات وجعل من هذا السند الممر السليم للكشف عن نظام الأنساق مشيراً في هذا السياق إلى مصطلح أساسي أطلق عليه اسم نماذج التعاقد.

التفاعل: إن التفاعل حسب هذه المقاربة عبارة عن مجموعة من التأثيرات ما بين أفراد أو ما يسمى في هذا الطرح ما بين عناصر النسق، وهو كذلك سيرورة نتائج السببية الدائرية الكفيلة بتحديد العلاقات والتعديلات الاجتماعية. ولقد أكد الكثير من رواد المقاربة النسقية ومختلف الامتدادات للنظرية العامة للأنساق لـ فون برتلانفي على ضرورة المحافظة والتركيز على خصوصية سيرورة التفاعل أو سيرورات الانبثاق le processus d'émergence.

العلاقات: يمكن تعريف العلاقات الإنسانية على أنها مجموعة من الروابط والتفاعلات التي تنشأ بين الأفراد ضمن تنظيم أو بيئة مشتركة يسعون لتحقيق أهداف مشتركة مع احترام الفروق الفردية والجوانب النفسية والاجتماعية. وفي سياق الأنساق أو التنظيمات العمالية على سبيل المثال تمت الإشارة إلى أن «العلاقات الإنسانية يمكن أن تعرف بأنها ناتج الموقف الاجتماعي الذي يوجد فيه الفرد مع جماعة من الناس لهم هدف مشترك يسعون لتحقيقه بأسلوب يتسم بالتعاون والمودة والرحمة بينهم آخذين بعين الاعتبار قدراتهم وشخصياتهم المنفردة.» (فاروق عبده فلييه، محمد عبد المجيد 2005:105).

و أشار م.روشلان في تعريفه للنسق على أهمية العلاقات مشيراً بذلك إلى "إن الحديث عن النسق يعني الحديث والتأكيد عن العلاقات ما بين مركبات النسق والتأكيد على التواصل والارتباط لهذه المركبات يقود في نفس الوقت إلى تحليل هذه العلاقات بمفهوم المهام فكل نسق مطالب بضمان مستوى معين من المهام" (M.Reuchlin, 1972:71).

نظرية التوازن والتغيير (التنظيم الذاتي): Homéostasie et Changement

تعد المقاربة النسقية أحد أهم الأدوات لفهم هذه الأنظمة المعقدة وتتبع تطورها. حاولت النظرية العامة للأنساق فهم التغيير والتطور في مختلف المجالات، من الطبيعة إلى المجتمعات. واقترحت هذه النظرية أن الأنساق تتكون من مجموعة من العناصر المتفاعلة بشكل دائري يصعب التنبؤ بمآلات هذا التفاعل.

يعتبر التنظيم الذاتي مفهوماً ديناميكياً يحرص على التعديلات الضرورية للنسق واستمراره وينحدر هذا المفهوم من البيولوجيا، ويشير إلى محاولة الكائنات الحية بالتمسك والمحافظة بوضعية استقرار لمكوناتها الداخلية (درجة الحرارة، خصائص الدم...الخ) رغم تأثيرات المحيط البيئي الخارجي التي تتواجد فيه ولكنها لا تلبث أن تتكيف أمام أي تهديد يواجهها، وهكذا يكمن استقرار واستمرار حياة الكائنات الحية ما بين فترات توازن وفترات تحولات Transformations أو تغيير Changements.

التغيير والتطور في ظل المقاربة النسقية

يشير التغيير في الأنظمة المعقدة إلى تحول النظام من حالة إلى أخرى، ويحدث هذا التغيير نتيجة تفاعل عناصر النسق أو تأثير عوامل خارجية، أما التطور فهو عملية أكثر تعقيداً تعبر عن قدرة النسق على القيام بوظائف أكثر تعقيداً والتكيف مع بيئته بشكل أفضل. وقد يحدث التغيير بشكل تدريجي أو مفاجئ أما التطور يمر عموماً على مرحلة زمنية لتوليد أنماط وسلوكيات جديدة والانتقال من نمط معهود إلى نمط جديد. وفي الأخير يمكن القول إلى أن الأنظمة المعقدة في حالة تغير مستمر، ولا يمكنها أن تكون في حالة توازن ثابت.

ترتكز النظرية العامة للأنساق على فهم آليات ومبادئ تغيير وتطور الأنظمة المعقدة والأسس التي تعتمد عليها ومن بينها: النظرة الكلية والشمولية للنظام، التفاعل

الديناميكي والمتبادل والعلاقات داخل النسق وخارجه، التواصل، التغذية الراجعة والتكيف أو المرونة.

يعتبر التوازن (Homéostasie) آلية من آليات التصحيح الذاتي الذي يهتم بحماية الطاقة الموجودة في للنسق، عكس التغيير (hétérostasie / changement) الذي يهتم بالتحول والنمو. يتميز النسق بالحيوية فتسعى كل من وظيفة الاتزان ووظيفة التغيير إلى التكيف مع سياقه العام. قد يمر النسق، خلال سيرورة التحول، بأزمات تجعل ضرورة الاتزان غالبية على ضرورة التغيير، ويصبح الاتزان في هذه الحالة مخلا بالنظام إلى غاية إدارة الأزمة، وأما في حالة استمرارها فيصبح النسق مريضاً un système pathologique. ركزت مدرسة پالو التو Palo Alto على نظريات مفصلية في القراءة والتحليل النسقي ومن أهمها، نظرية السيبرانية، نظرية التواصل، ونظرية التوازن والتغيير أو ما يعرف بنظرية التنظيم الذاتي.

النظرية السيبرانية (la Théorie de la Cybernétique)

تعريف لغوي للسيبرانية: يرجع مصطلح "السيبرانية" إلى اللغة اليونانية، وبالذات إلى كلمة "كبيرنتيك" Kebrentic بمعنى الشخص الذي يدير دفة السفينة، وتحمل هذه الكلمة معنيين: التوجيه pilotage، والحوكمة gouvernance. يجد المختصون في اللغة العربية تحدياً في اختيار كلمة مقاربة لكلمة cyber وهي مشتقة من اللغة الإنجليزية والتي تعني الشبكات الالكترونية بكافة أنواعها، بما فيها من برامج وتطبيقات وخدمات كثيرة ومتنوعة، ويطلق عليها كذلك علم التحكم الآلي أما السيبرانية حسب قاموس الأمن المعلوماتي تعني هجوم عبر الفضاء الإلكتروني الذي يهدف إلى السيطرة على مواقع إلكترونية.

تعريف نوربير. وينير للسيبرانية: تعتبر السيبرانية علم مركب من مجموع النظريات المتعلقة بالتواصل وتعديل نظام انساق الكائنات الحية والآلات، ويعتبر ن. وينير (N. Wiener) أب السيبرانية الذي أدرك في عام (1940) من خلال عمله في ضبط آلات القيادة الأوتوماتيكية، والمدافع الهوائية إبان الحرب العالمية الثانية، التماثل ما بين الأجهزة الميكانيكية والجهاز العصبي للإنسان، خاصة التماثل في تنقل المعلومات داخل حلقة مغلقة، وهو ما يعرف بالتغذية الراجعة. تعمل الآلة من خلال عملية الارتجاع على تقييم نتائج أفعالها، وتصحيح أدائها المستقبلي باستخدامها لقدراتها الماضية، وفي هذه الحالة

تصبح السببية الخطية (الموجهة من السبب إلى الأثر) غير صالحة لأن كل أثر له تأثير ارتجاعي على سببه بمعنى يصبح الأثر فيما بعد سببا. فتح هذا الإدراك للتماثل المجال لبروز مصطلح السببية الدائرية أو بدقة أكثر السياق الدائري للتفاعلات، والذي على إثره فقدت مفاهيم السبب والأثر أهميتها عند تحليل بنية التفاعلات (F.Rougeul, 2003).

السيرانية الأولى:

1-2-3 ميلاد السيرانية الأولى: استخدم مصطلح السيرانية الأول مرة عام 1947 من طرف نوربير فينر "Norbert Wiener" بهدف وصف نظام التغذية الراجعة Feedback ، الذي يعمل على الاستفادة من مخرجات الأنساق في ضبط المدخلات والتحكم فيها، واستقرار أداؤها. بغض النظر عن أعمال بعض العلماء بمختلف التخصصات إلا أن النظرية الرياضية لكود شانون Claude Shannon وتسمى نظرية المعلومات (la théorie de l'information) كان لها أثرا كبيرا في تطوير مصطلح السيرانية وظهور السيرانية الثانية إذ تصف نظرية كود شانون الجوانب الأساسية لأنظمة الاتصالات، وتهتم النظرية ببناء ودراسة النماذج الرياضية باستخدام نظرية الاحتمالات في المقام الأول.

2-3-2 اهتمامات السيرانية الأولى: اهتمت بدراسة الأنظمة المعقدة وسلوكها الديناميكي، حيث تسعى لفهم آليات التنظيم الذاتي والتكيف في هذه الأنظمة. تعتمد السيرانية الأولى على مبادئ أساسية تشمل التغذية الرجعية، التي تمكن النظام من تعديل سلوكه استجابة للتغيرات في المدخلات، النمذجة الرياضية، التي تستخدم لبناء نماذج مجردة تساهم في فهم سلوك النظام وتحليله. وللحفاظ على التوازن الداخلي للنسق تركز السيرانية الأولى على مبدأ التنظيم الذاتي، العلاقة الخطية بين الملاحظ (المراقب) والنظام ومدى تأثير المراقب على النظام الذي يراقبه. اكتسحت السيرانية الأولى مجالات متعددة، كعلم الأحياء والهندسة والاقتصاد وساهمت في تطوير تطبيقات متعددة.

السيرانية الثانية:

تعريف السيرانية: يُنسب مصطلح السيرانية الثانية إلى المهندس وعالم الرياضيات هاينز فون فورستر Heinz von Foerster ، حيث تمكّن من حساب علاقات التأثير الموجودة بين نظام المراقب أو الملاحظ والنظام المرصود (مفهوم ملاحظة المشاركين) فهناك مشاركة حقيقية للملاحظ في النسق الذي يلاحظه؛ وبعيداً عن أن يكون في موقف الحياد، فهو يمارس تأثيراً على الظواهر التي يدركها، ففي العلاج النسقي الأسري يعتبر المعالج (الملاحظ)

عنصر من النسق الذي يلاحظه، وكل من المعالج والأسرة يشكلان نسقا جديدا يجمعهما يسمى بالنسق العلاجي.

-نشأة ومبادئ السيبرانية الثانية: نشأت السيبرانية الثانية في الخمسينيات من القرن العشرين وتعد امتداداً طبيعياً للسيبرانية الأولى، وتهتم بدراسة الأنظمة الديناميكية، بما في ذلك الأنساق الحيوية والمعرفية، أي الأنساق البشرية التي تمتلك قدرات تطويرية. تميزت السيبرانية الثانية بدراسة العلاقة التفاعلية المتبادلة بين الأنساق. تقوم السيبرانية الثانية على عدة مبادئ أساسية ومن أبرزها مبدأ الملاحظ النشاط ومبدأ البناء المشترك للواقع ومبدأ العلاقة الدائرية.

يفيد مبدأ الملاحظ النشاط على أن الملاحظ أو المراقب ليس مجرد كائن سلبي يراقب النسق من الخارج بل يتفاعل معه ويؤثر عليه، ويتعلق المبدأ الثاني بالبناء المشترك للواقع حيث يُعتبر الواقع نتاجاً للتفاعل المستمر بين المراقب والنسق. وأخيراً يتمثل المبدأ الثالث في العلاقة الدائرية التي تجعل من الصعب فصل الملاحظ عن النسق مما يؤدي إلى إحداث تغييرات داخل النظام، ويجب التأكيد على أنه يمكن للتغيرات الطفيفة في المدخلات إلى تغييرات كبيرة في المخرجات. أسهمت هذه التطورات في انتشار السيبرانية في مجالات وعلوم متعددة مثل العلوم الاجتماعية، العلاجات النفسية، الطب، والذكاء الاصطناعي.

-نظرية التواصل حسب مدرسة بالوآلتو (Palo-Alto) :

إن ما قدمته مدرسة بالو آلتومن إسهامات مختلفة بالنسبة للدراسات الاتصالية يحتاج إلى بحث معمق، احتضنت هذه المدرسة كما هائلا من العلماء والباحثين بمختلف التخصصات والخلفيات المعرفية وكان الرابط الوثيق الذي جمعهم هو الجرأة المنهجية والاهتمام بنفس مجال الشغف العلمي المتعلق بالاتصال بين الأفراد. انطلاقاً من فترة الخمسينات، بدأ التركيز على أنماط سلوك الاتصال، علاقة الاتصال بالثقافة وبالمحيط العام للفرد، قدم فون برتالافلي L.V Bertalanffy رؤية جديدة للإنسان، تختلف عن النظريات السلوكية السائدة في النصف الأول من القرن العشرين والتي كانت ترى السلوك الإنساني على أنه رد فعل ميكانيكي تجاه المثيرات الخارجية. وكان للأنثروبولوجيين في هذا الميدان القسط الوافر من الإثراء، كما اجتهد مختصون آخرون في العلوم الاجتماعية واللسانيات والطب النفسي والعقلي في البحث عن القواعد التي تضبط وتنظم التواصل والأخذ بعين الاعتبار أهمية السياق في العملية الاتصالية.

إسهامات پالوآلتو:

تخطت مدرسة پالوآلتوالمفهوم الضيق للاتصال المنحصر في نموذج السببية الخطية (أين يتم إرسال المعلومات انطلاقاً من منبعها عبر قناة باتجاه المستقبل وتعود رسالة المستقبل بنفس المسار لترجع إلى المرسل)، لينصب اهتمامها بالتغذية الرجعية في إطار نموذج السببية الدائرية وبالعلاقات التي تنشأ بين المتصلين، وارتكزت قراءة هذه المدرسة على افتراض أن كل سلوك إنساني يعتبر ذو قيمة تواصلية يمكن إدراكها كنسق واسع في تفاعل متبادل ومستمر.

استرجعت مدرسة پالو-آلتو الرسوم البيانية الكلاسيكية لعناصر الاتصال كالمرسل (مصدر الاتصال)، المرسل إليه (الذي تلقى الاتصال)، الرسالة (محتوى الاتصال) واستندت على مجموعة من العلوم والنظريات لباحثين بشتى الاختصاصات من بينها:

• نظرية المعلوماتية لكلود شانون: la Théorie de l'Information: de Claude Shannon

• نظرية الاتصال لهارولد لاسوال: la Théorie de la Harold Lasswell

Communication d'

• نظرية السيبرانية لنوربير واينر: la Théorie de la Cybernétique de Norbert

Wiener

لقد ساهم علم السيبرنيتك في إدخال الاتصال ميدان الهندسة بعد إفراغه من الخاصية التقنية والرياضية، ومن رواد هذا العلم نوربير واينر N.Weiner الذي وضع نموذجاً لعملية الارتجاع Rétroaction، ومثل هذا النموذج أول ترسيمة للتواصل، اعتمد فيها على سيرورة من المعلومات التي تنطلق من مدخلات (in put) وتمر عبر مراحل معقدة ومنسقة لتصبح مخرجات (out put)، وبفعل الارتجاع (التأثير والتأثر المتبادل) تعود المعلومات إلى نقطة انطلاقها الأولى.

إسهامات المقاربة النسقية في العلاجات الأسرية

ارتبطت النسقية الحالية بالعولمة حيث كرسست هذه الأخيرة الوعي بالتعقيد (للكون، والكائنات الحية، والمجتمعات البشرية، والأنظمة الاصطناعية التي صممها البشر) كما أولت اهتماماً خاصاً للأنظمة الديناميكية المتطورة. لقد أدى هذا التحول إلى ظهور العديد من التطبيقات في علم الأحياء، وعلم البيئة، والاقتصاد، وإدارة الأعمال، وتخطيط المدن،

والتخطيط الإقليمي والعلاجات الأسرية وكان هذا بمثابة رد فعل على الصعوبات التي واجهتها محاولات تطبيق النظريات السببرانية على المنظمات والمجتمع ككل.

تعد المقاربة النسقية أحد أهم الأسس النظرية التي تقوم عليها العلاجات الأسرية الحديثة. وقد قدمت هذه المقاربة إسهامات جذرية في فهم ديناميكيات العلاقات الأسرية وتطوير استراتيجيات علاجية فعالة. تعتبر مدرسة پالو ألتو من المدارس الرائدة في مجال العلاج الأسري التي أسهمت بشكل كبير في تطوير نظريات وتقنيات العلاج، وتنوع التطبيقات، من خلال التركيز على الأسرة كوحدة واحدة، وأهمية الاتصال، ودور المعالج، والتركيز على الحاضر. انصب اهتمام مدرسة پالو ألتو على فهم الأنماط التفاعلية التواصلية والعلاقات بين الأفراد داخل النسق الأسري، وتعزيز التكيف مع السياق، ومساعدة الأسرة على تطوير مهارات.

كان لبيتر سيكلاند وكارل إي. ويك Peter Cekland & Karl. E.Weik أثرا في ظهور تيار جديد بالولايات المتحدة يطلق عليه "نسقية الجيل الثالث" "systémique de 3ème génération" والذي اهتم بتطوير نظرية معرفية ومناهج خاصة بالمنظمات والأنساق الاجتماعية، وقدم هذان العالمان في كتابهما "انساق الجيل الثالث" مجموعة من تطبيقات ملموسة في مجالات مختلفة، وفق أسس ومبادئ أنساق الجيل الثالث، وأساليب التدخل النسقي مع التأكيد على الاهتمام بالسياق والأخذ بعين الاعتبار سيرورة كل تدخل والالتزام بالتغيير واحترام التنوع والاختلاف (P.Cekland & K. E. Weik, 2017).

اعتمد انجاز هذا الكتاب "انساق الجيل الثالث" على أعمال جريجوري باتسون، وبول واتزلوايك، وهانز فون فورستر وآخرين، وهو كتاب مؤجّه على وجه الخصوص للمتخصصين في التدخل الاجتماعي والصحة العقلية والتعليم والإدارة ناهيك عن الطلاب والأشخاص المهتمين بالأنساق والنظم وإدارة الأزمات والمواقف الصعبة وتحسين جودة الحياة الأسرية.

براغماتية الاتصال:

إن الاستناد هذه المدرسة على براغماتية التواصل يحمل بعدا علائقيا، اهتم روادها بالعلاقات بين الفاعلين وكانت البداية مع ج. بتيسون G. Bateson وفريقه سنة 1994 ثم مع د. جاكسون D.Jackson مؤسس معهد البحوث MRI سنة 1959 ليستمر البحث مع ب. فترزلافيك P. Watzlawick الذي نشر سنة 1967 مع ج. بييفين ود. جاكسون J.Beavin & z.

la Pragmatique de la Communication D.Jackson مرجعين مهمين، الأول بعنوان براغماتية التواصل une Logique de "Communication" والثاني بعنوان "منطق التواصل" "Communication" والذي تضمن خلاصة أفكاره المدرسة في إطار نظرتها النسقية للاتصال.

2-1- مسلمّات الاتصال:

أحدث هذين الكتابين نقلة نوعية في العالم بعد افتراض ب. فتزلافيك للبديهيات الخمس للاتصال وهي عبارة عن مسلمّات تسمح لنا بالعمل على حل المشاكل العلائقية بطريقة جديدة. كان افتراض مسلمّات الاتصال " les Axiomes de la Communication" بمثابة إبداع مميز، وتتمثل هذه المسلمّات التي زاد رواجها مع مرور الوقت فيما يلي:

1- استحالة عدم الاتصال: On ne peut pas ne pas communiquer

2- الاتصال اللفظي (الاتصال الرقمي) والاتصال الغير اللفظي (الاتصال التمثيلي، الأنالوجي، التناظري):

Communication digitale et la Communication analogique

3- مستويات الاتصال (المحتوى والعلاقة):

Les Niveaux de Communication : Contenu et Relation

4- علامات الترقيم في تسلسل الأحداث (أو تجزئة مقاطع الأحداث، أو ضبط وحدات

متتالية للإحداث) Ponctuation des Séquences des Faits

5- التفاعلات التناظرية والتكاملية les Interactions Symétriques et Complémentaires

تعدت مدرسة بالو ألتو المفهوم الضيق للاتصال المنحصر في النموذج اللفظي، الإرادي،

الشعوري والسببية الخطية، وأشاد أ.أميغي وس. جولي (C.Julier & O Amiguet, 1996)

بالتصور الجديد ومميزات الاتصال في ظل المقاربة النسقية:

✓ الاهتمام ببراعماتية الاتصال من خلال دراسة ديناميكية العلاقات بين المرسل والمستقبل والاعتراف بأهمية الرسائل وترجمة الإشارات التي تحملها مع مراعاة الخصائص النفسية والمعاني التي تحملها.

✓ براغماتية الاتصال (حركات، إشارات، ملامح الوجه... الخ) وتأثيرها على الاتصال اللفظي (الأنالوجي).

✓ كل سلوك ذو قيمة اتصالية، سواء كان شعوريا أو غير شعوري.

✓ إن استحالة عدم الاتصال تؤدي إلى اعتبار الجهاز النفسي عبارة عن علبة سوداء *boite noire*، لا يمكن التعرف على ما بداخلها إلا عن طريق السلوك.

✓ تخضع بعض عناصر الاتصال إلى مجموعة من القواعد تمكن الفرد من تعديل سلوكه بواسطة التكرارات التي تحدث ضمن سيرورة التفاعل.

✓ يصعب ضمن هذه السببية الدائرية *causalité circulaire* معرفة بداية الاتصال ونهايته وهذا لكون سيرورات الاتصال هي عبارة عن أنساق من التغذية الراجعة تجعل من السلوك الاتصالي رد فعل لما استقبله ولما سيصدره ملحقا كإرسال.

✓ السوي والمرضي *le normal et le pathologique* هي مفاهيم نسبية بما أن كل سلوك يأخذ معناه من خلال السياق، فما يوصف بالسلوك المرضي في سياق ما قد يكون عاديا في سياق آخر والعكس صحيح.

وأخيرا يمكن القول أن التفاعل الذي يضم مجموعة من الرسائل الاتصالية (عناصر) يمكن اعتباره نسق وهذا حسب ما جاء في النظرية العامة للأنساق، والتي ترى على أن النسق هو تلك المجموعة من العناصر المتفاعلة والتي تتطور مع الوقت لبلوغ هدف ما بشكل يجعل أي تغيير في عنصر ما أو في خاصية له تؤثر على مجموعة عناصر النسق.

كان لمدرسة پالو آلتو دور كبير في التمييز بين الاتصال والتواصل. فالاتصال هو عملية ضرورية لنقل المعلومات من مصدر إلى مستقبل، بغض النظر عن الشكل الذي تتخذه هذه المعلومات أو الوسيلة المستخدمة، بينما التواصل هو عملية تبادل أوسع وأعمق يشمل الأفكار والمشاعر والعلاقات والأبعاد النفسية والاجتماعية للإنسان مستندا على العناصر اللفظية والغير اللفظية.

النظرية البنائية:

تعتبر لنظرية البنائية من أهم النظريات في المقاربة النسقية لأنها تركز على كيفية بناء الأفراد للمعنى ولفهم العالم من حولهم، وتتميز المعرفة بكونها عملية ديناميكية تتطور باستمرار ويتم بناءها من خلال التفاعل الفرد مع البيئة وتقوم البنائية على مجموعة من المبادئ الأساسية، منها ما يلي:

- الفرد هو الفاعل الأساسي في بناء المعرفة.
- المعرفة ليست مستقلة عن الفرد، بل يتم بناؤها من خلال التفاعل مع البيئة.
- المعرفة هي عملية مستمرة يتم توسيعها باستمرار.

إيجابيات النظرية البنائية:

- تتميز بمستوى من الحرية في التفكير والتطبيق والأداء
 - القدرة على تعزيز روح المسؤولية في اتخاذ القرارات.
 - ارتفاع درجة التقبل لواقع الآخر.
 - دفع الفرد إلى اختراع وبناء حقيقة وواقع خاص به.
 - الاهتمام بالواقع المعاش للإنسان في بناءه لحقيقة خاصة به.
- يعتبر ب. فلتزليفك من رواد المقاربة البنائية وأشد المدافعين عن البنائية كنظرية أساسية للمقاربة النسقية وعرفها على أنها عبارة عن نظرية المعرفة أولا وقبل كل شيء، تُناقض جزءا كبيرا من الفهم التقليدي للعالم، ولها نقاط مشتركة مع الفلسفة الإرتيائية scepticism التي تستند على الشك le doute. دافع ب. فلتزليفك عن النظرية البنائية لاعتبارات عدة تجلت بوضوح في كتاب "مقدمة للبنائية الجذرية" ل.إ.فون جلاسرفد (E.Von Glaserfed)، وهي كالآتي:
- الإنسان هو المسؤول الوحيد عن تفكيره، ومعرفته وأداءه، وبطريقة غير شعورية فهو مسؤول إلى حد كبير في بناء العالم الذي يعيش.
 - البناء اللاشعوري للعالم الذي يعيش فيه الإنسان لا يمنعه وبطريقة شعورية تعلم كيفية بناء عالمه الخاص.
 - لا تقتصر المعرفة على التجارب الشخصية فالإحساس الذاتي كافي لاكتساب المعرفة وتسخيرها لبلوغ الهدف. تعتبر المقاربة النسقية نموذجا للفكر وللأداء، لا يمكن فصل معرفة الأداء عن المعرفة الفكرية فهما معرفتان متلازمتان تغذي كل واحدة منهما الأخرى.
- ### خصائص المقاربة النسقية:
- تتميز المقاربة النسقية في تحليلها للأنساق بعدة خصائص كالانفتاح، عدم الاستقرار، الفوضى، الغموض، التعارض، التناقض والإبداع... إلخ، ويرى ج. دناديو وم. كارسكي في هذا الصدد على أن المقاربة النسقية تركز على ثملات وتصورات جديدة للواقع تأخذ بعين الاعتبار خصائص مثل عدم الاستقرار، الانفتاح، التذبذب La fluctuation، الفوضى Le désordre et le chaos، الغموض، التعارض، التناقض والإبداع. (G.Donadieu & M.Karsky, 2002). وأشار الكثير من الباحثين إلى وجود خصائص متناقضة في الأنساق

كالاستقرار وعدم الاستقرار، البساطة والتعقيد، التجانس والتنوع، المرونة والجمود، الوحدة والتفكك والتغيير والثبات. تساهم هذه التناقضات في تعقيد فهم الأنساق والأنظمة وكيفية إدارتها في سياقات مختلفة، وترتبط هذه التناقضات في التحليل النسقي بخصائص على مستوى الموضوع، والنظرية، والنموذج المعقد والمنهج.

1-خاصية الموضوع:

يقصد بالموضوع العنصر أو المجموعة من العناصر التي يتم دراستها في إطار نسق وسياق معين، وفي هذا الإطار فإن "الموضوع في المقاربة النسقية هو جزء من نظام أكبر، لذلك، فإن فهم الموضوع لا يمكن أن يتم بمعزل عن النظام الذي ينتمي إليه." (Cekland, 2017: 20).

ومن الأمثلة على الموضوع في المقاربة النسقية، دراسة الأسرة كنظام، يمكن أن يكون الموضوع أحد أفراد الأسرة، أو الأسرة ككل أو دراسة المجتمع كنظام، يمكن أن يكون أحد المؤسسات الاجتماعية موضوع البحث أو المجتمع ككل وهذا لفهم موضوع الدراسة واستنتاج المحددات البنيوية والوظيفية للأنساق وترتيب بعض آليات التغيير أو الكف عنها أو تشجيعها. ويؤكد كل من ج.دوناديو وم.كارسكي إلى إن ارتكاز الباحثين أو أصحاب القرار على مستوى المؤسسات المختلفة على المقاربة النسقية كطريقة عمل يتطلب منهم مجهودا كبيرا في تعلم المفاهيم المرتبطة بالمقاربة واستيعابها والاتفاق على معناها كخطوة أولى قبل مباشرة العمل وتعد هذه المقاربة إبحارا سعيديا في أجواء معقدة (G.Donadieu&M.karsky, 2002).

خاصية النظرية:

تعتبر النظرية نسق حي مفتوح على الخارج ويتغير بفعل التفاعلات الداخلية والخارجية، وفي حالة ما إذا تقبل النسق ما فرض عليه وانغلق على نفسه يعتبر حينها نسقا ميتا. تحتاج نتائج النظرية إلى الملاحظة فبدونها لا يمكن الوصول إلى معرفة الظواهر، والملاحظة كذلك تحتاج إلى النظرية وإلى مجموعة منسقة من الأفكار تركز عليها لبناء المعرفة وترتيبها حسب درجات الأهمية وتحقق من صحتها. عرف إ. مورين E.Morin على أن "النظرية هي نسق من الأفكار الذي يبني، يرتب hiérarchisant يتحقق من المعرفة بشكل يعيد الاعتبار إلى نظام نسق الظواهر الذي يمعن فيها"

(O.Amiguët C.Julier, 1996 :21)

خاصية النموذج النسقي:

يعرف النموذج النسقي بالنموذج المعقد ويحتوي على مجموعة من المتناقضات كالنظام والفوضى في نفس الوقت، على التوازن واختلال التوازن، على السوي والمرضي وعلى المعزول والمدمج.. الخ. وتعتبر هذه المدركات والمفاهيم متناقضة وفي نفس الوقت متكاملة ويرجع الفضل في طرح هذا المصطلح إلى ل.ف. برتلانفلي L.V.Bertalanffy (1930) وإلى إ. مورين E.Morin الذي أضاف إلى هذا النموذج صفة التعقيد يستدل بقوله « إنَّ صعوبة الفكر المعقد هي أنها يجب عليها مواجهة الركاب للعب اللامتناهي من الأفعال الرجعية المتبادلة، تضامن الظواهر فيما بينها، الضباب، الشك، التناقض » (O.Amiguët & C.Julier, 1996 : 22).

4-خاصية المنهج:

يعتبر المنهج مجموعة من القواعد والإجراءات التي يتم اتخاذها في البحث العلمي أو في أي مجال آخر من مجالات الحياة للوصول إلى هدف ما، أما في المقاربة النسقية يعتبر المنهج أحد أهم الخصائص، فالمنهج النسقي يسعى إلى فهم الواقع من خلال دراسة العلاقات بين مختلف العناصر المكونة له، ويعرفه كل من بيتر سيكلاند وكارل إي ويك على أن "المنهج النسقي هو منهج يركز على دراسة العلاقات بين مختلف العناصر المكونة للنظام". (Cekland & Weik, 2017 :10)

و في نفس السياق يضيف اميغي وجولي على أن "المنهج النسقي يعتمد على مجموعة من الأساليب والتقنيات التي تسمح بدراسة هذه العلاقات". (Amiguët Julier, 1996, p. 0)

خاتمة:

أحدثت المقاربة النسقية نقلة نوعية وثورة إبستمولوجية لما فترته من تحولٍ راديكالي وجذريٍّ في كيفية فهم وإدراك الواقع من خلال تصور ورؤية شاملة وفهم ملموس للظاهرة، واكتسح الفكر النسقي ميادين متعددة وعلوم مختلفة كعلم الأحياء وعلم الاجتماع والصحة، والسياسة البيئية، والاقتصاد وتسيير المؤسسات، وتكنولوجيا المعلومات وغيرها من العلوم. انطلقت المقاربة النسقية من تصور الظاهرة كنسق متفاعلة عناصره، له بنية وتنظيم وهدف ترسم معالمه أسس وعوامل عديدة منها: نوعية التواصل، طبيعة العلاقات، التغذية الرجعية، الضبط، التنظيم، السياق، درجة الانفتاح على المحيط، والقدرة على التغيير والتطور.

تعتبر المقاربة النسقية عملية التغير عملية مستمرة بمعنى أن الأنظمة المعقدة في حالة تغير مستمر، ولا يمكنها أن تكون في حالة توازن ثابت، تركز المقاربة في تحليلها للظواهر على أسس مهمة وهي السببية الدائرية، عدم القدرة على التنبؤ، عدم الاستقرار، والواقع المبني. تعد المقاربة النسقية من أهم الأدوات التحليلية لفهم الظواهر المعقدة وأكثرها توجهاً للحاضر والمستقبل، وانفتاحاً على تنوع الحقائق وتعدد الحلول.

يعد التحليل النسقي أداة قوية لحل المشكلات المعقدة ويتطلب فهماً عميقاً وتعلماً واستيعاباً للمفاهيم النظرية المرتبطة به، فالمعرفة النظرية تعتبر الخطوة الأولى قبل مباشرة أي عمل، بينما الأداء العملي يساعد على تطبيق هذه المعرفة في إيجاد الحلول المناسبة، إن التفاعل المستمر بين الخلفية النظرية والتطبيق يساهم في تطوير المهارات اللازمة لتحليل وفهم أعمق للأنظمة المعقدة. تتيح المقاربة النسقية مجالاً واسعاً للخيال والإبداع لإنتاج المعرفة والتطبيقات الإجرائية الجديدة، كما تعد هذه المقاربة مجالاً واعداً للبحث والتقصي في العديد من العلوم وتطوير أدوات ومنهجيات جديدة لتحليل الأنساق المعقدة وحل المشكلات العالمية.

قائمة المراجع

المراجع باللغة العربية

- العيفة محمد رضا، (2024)، إسهامات المقاربة النسقية في تطور الدراسات الاتصالية - رؤية إبستمولوجية ونظرية، مجلة الرسالة للدراسات الإعلامية، 7(4)، ص 11-39.
- خليفة داود، (2019)، ادغار موران، والتأسيس لمنهج الجديد - الإبيستيمولوجيا المركبة في مواجهة منظومة الاختزال، كتاب جماعي بعنوان: سؤال المنهج في العلوم الاجتماعية"، منتدى المعارف، بيروت، لبنان.
- سعيد وحيدة، ولهي حنان (2018)، التنظيمات، تحليل نسقي، مجلة دراسات وأبحاث المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة سطيف، مجلد 10، عدد 4، ص 436-451.
- بن ناصر وهيب (2012)، قراءة نسقية للتدخل الطبي الاستعجالي: دراسة ميدانية بالمستشفى الجامعي بوهران، رسالة ماجستير في دراسة الجماعات والمؤسسات (المدرسة الدكتورالية)، جامعة وهران 2.
- محمد الجوهري (2010)، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية، المركز القومي للترجمة، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى.
- محمد عبد المجيد & فاروق عبده فيلة، (2005)، السلوك التنظيمي في إدارة المؤسسات التعليمية، الطبعة الأولى، دار المسيرة - عمان، الأردن
- بودون ريمون، بوريكو فرانسوا (1982)، المعجم النقدي للعلم الاجتماع، ترجمة: حداد سليم، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

المراجع باللغة الأجنبية

- Gregory Bateson, (2024), la Nature et l'Esprit, (traduit de l'anglais par Alain Cardoën & Marie-Claire Chiareri & Jean Luc Giribone, Paris, Edition Points Essais,

Sylvie Grosjean, Luc Bonneville, (2019), la Communication Organisationnelle, Approches, Processus et Enjeux, Chenelière Education, Canada.

Cekland,P & Weik,K.E, (2017). "Systèmes de 3ème Génération : Une nouvelle approche de l'intervention systémique", Dunod, Paris.

Katherine Miller, (2015), Organizational Communication: Approaches and Processes, Cengage Learning, USA.

Edgar Morin, (2014), Introduction à la pensée Complexe, Paris, Editions Points.

Norbert Wiener, (2014) (trad. de l'anglais par Pierre-Yves Mistoulon), *Cybernétique et Société l'usage Humain des êtres humains*, Paris, Éditions du Seuil, coll. « Points / Sciences », n° 216.

David Pouvreau, (2013), «Une Histoire de la Systémologie Générale de Ludwig Von Bertalanffy - Généalogie, genèse, actualisation et postérité d'un projet herméneutique", Thèse de doctorat (1138 pages), EHESS, Paris.

Lasfargues Frederic & Dalin Christophe & Cambien Aurore, (2007), une Introduction à l'Approche Systémique, appréhender la complexité, CERTU.

Gérard Piroton, (2005), Introduction à la Systémique, analyse num 18, Etopia : Centre d'Animation et de Recherche en Ecologie Politique.

Françoise Rougeul, (2003), « Famille en Crise- Approche Systémique des Relations Humains », Paris/ France, Edition Geory.

Donnadieu, G., & Karsky, (2002). *La systémique, penser et agir dans la complexité*, Éditions Liaisons.

Robert Neuberger (2002), « On arrête ? On continue ? : Faire son bilan de Couple », ill, Patrick Rouchon , Paris, Payot.& Rivages, Réed, 2013.

Olivier Amiguet & Claude Julier, (1996), L'Intervention Systémique dans le Travail Social, Repères Epistémologiques, Ethiques et Méthodologiques, 8^{ème} édition 2013, Les Editions I.E.S/HETS, Genève.

Maurice Reuchlin, (1995), *Totalités, Eléments, Structures en Psychologie*, Paris. PUF.

Olivier Amiguet & Claude Julier, (1994), Travail Social et Systémique, (textes réunis par les auteurs), Les éditions I.E.S/HETS, Genève.

Maurice Reuchlin, (1991). La psychologie différentielle. Paris: Presses Universitaires de France.

Gregory Bateson, (1979), Vers une Ecologie de l'Esprit : Une Introduction aux Interactions entre les Processus d'Apprentissage et de la Communication (traduit : J-L. Le Moigne & M. de Kerckhove), Paris, Editions Seuil.

Russell L. Ackoff , (1973) La Science à l'ère des Systèmes : au-delà de l'IE, de l'OR et de la MS. Revue: 4OR - A Quarterly Journal of Operations Research.

Ludvig Von Bertalanffy, (1968). Théorie générale des systèmes, (Traduit : Jean Benoît Chabrol), Paris, Réed Dunod 1973.